بين البارودي وأساتذة المرصفي

بقلم
الدكتور محمد كامل الفقي
الأستاذ المتفرغ بالكلية

هذا حديث غاب عن كثير من الباحثين ، وأغفل من القليل منهم ، من وقف على أسراره ، وتعلق بهذا البحث ، وفتونى به من حيث جوته وطرافته ، ومن حيث إن تناوله يرمز إلى الوفاء الوفى للازهريين الذين كانوا أساتذة الدنيا ، فضلا عما فيه من تجلية لجانب مهم من جوانب «البارودى» رائد البعث والإحياء

فقد كان فريق من فحول اللغة والأدب فى الأزهر ، أساتذة للرعيل الأول من نابهى الشعراء فى هذا العصر الرافعين أعلامه ، المقيضين له أسمى المكانات وأرفع المنازل ، أخذ هؤلاء الشعراء الذين تباهى بهم العربية ، وتفاخر بهم مصر حواضر الأدب فى أزهى عصوره ، عن أساتذة من الأزهر ، فانتفعوا بعلمهم ، وإسترشدوا بنقدهم ، وتعلموا من رواياتهم ، ونزعوا منزعهم ، وجروا مجراهم فى تفهم الشعر ، واكتناه اللغة ، والتفطن لموازين البلاغة ، وتيسر لهم بهؤلاء الرواد ضروب من التوجيه ، وألوان من التشجيع ، بل وجدوا منهم ماخلق من ملكاتهم الخصبة أسباب الخلود ، مما لولاه لظلوا مغمورين ، وعاشوا غير عاملين

كان الشيخ « حسين المرصفى » ذا شهرة بالعلم ، وحيث فى الأدب ، وكانت الزعامة قد إنعقدت له فى التوجيه والنقد ، وغزارة العلم والبيان ، يؤمه كتاب وشعراء ، ويقصده علماء وأدباء ، ويعرض أدبه عليه فحول الأدب واللبيان .

« والبارودى » ممتلىء منذ نعومة أظفاره حباً للادب ، وإيثاراً للشعر ، وهوى للبيان ، ومما من شك فى أن هواه هو الذى أحنته على « المرصفى » إحتناءاً وأجذبه إجتذاباً ، يجد فى درسه ونقده وتوجيهه مايمنع غلته ، ويروى صداه

ولقد جهدت فى تحديد الصلة التى كانت بين « المرصفى » و « البارودي » وعنيت بها ، كيف نشأت ، وعلى أى نت ،وجه كا وأين كان الرجلان يلتقيان ؟ لكن جواباً عن شيء من ذلك لم يتيسر لى فيما قرأت واستقرأت ، فكيف يعرف كثير من الأدباء أن « البارودى » صله « بالمرصفى » وأن للاول بالثانى إنتفاعاً ،فقد إستفاض الحديث عن ذلك حتى تحدث الشاعر نفسه به،ولكن تحديد هذه الصلة ، وبدءها وكنهها غامض ، فاصل « البارودي » ليساره ونعمته ، كان قد سعى لإستقدام الشيخ فى منزله ، والانفراد به فى ظل مكان هادىء عليه التكمله الإنتفاع بأستاذه ويهيء له أسباب الأخذ والتوجيه ، ويجد من أستاذه كلما وفد إليه والتقى به معلماً يعلمه،وهادياً يهديه،ومهذباً يصقل أدبه،ويجلو بيانه

ويتحدث الأستاذ « مصطفى صادق الرافعى » عن صلة « البارودى » بالمرصفى فيقول ، ومن عجيب أمر « البارودى » مارأه فيما كتبه عن الشيخ « حسين المرصفى » منذ ثلاثين سنة ، وهو أستاذه (١) .

ويقول الأستاذ « العقاد » : إن « المرصفى » أستاذ « البارودى » و « حافظ » وقد وسمهما فى الرأى والنقد وتذوق الكلام .

وجاء فى كتاب « المفصل » الذي ألفه جهرة من فحول الأدباء والعلماء قوله وأخذ عن « المرصفى » كبار المتأدبين فى عصره من « البارودى » وأمثاله ، فصاحبوه ، ولازموه ، وعرضوا عليه بيانهم فهدى ونقح وهذب .

و « المرصفى » حين يتحدث عن « البارودى » يدل على أن « البارودى » تلقى عنه ، وتعلم منه ، فانه يقول إن « البارودى » لم يقرأ كتاباً فى فن من فنون العربية ، غير أنه لما بلغ سن التعقل ، وجد من طبعة ميلا إلى قراءة الشعر وعمله ، فكان يستمع لبعض من له دراية وهو يقرأ بحضرته ، حتى تصور فى برهة قصيرة هيئات التراكيب العربية ، ومواقع المرفوعات منها والمنصوبات

---

(١) المقتطف الصادر فى ٢٦ من ذى القعدة سنة ١٣٢٢ هـ الموافق أول فبراير سنة ١٩٠٥ م .

والمخفوضات ، حسبما تقتضيه المعانى والمتعلقات المختلفة ، فصار يقرأ ولا يكاد يلحن، ولم نعرف أن « البارودى » اتصل بغير « المرصفى » ممن له درايه أو قرأ بحضرته دواوين الشعر .

ويقول : وسمعته مرة يسكن ياء المنقوص والفعل المعتل بها المنصوبين ، فقلت له فى ذلك فقال : هو كذا فى قول فلان ، وأنشد شعراً لبعض العرب ، فقلت له : تلك ضرورة ، وقال علماء العربية إنها غير شاذة ، ثم إستقل بقراءة دواوين مشاهير الشعراء من العرب وغيرهم ، حتى حفظ الكثير منها دون كلفة وإستقبت جميع معانيها ، ناقداً شريفها من خسيسها ، واقفاً على صوابها وخطئها مدركا ماينبغى وفق الكلام وما لاينبغى (١) .

فالمرصفى يتحدث عنه حديث خبير به ، حديثاً يدل على أن « البارودى » كانت له معه دراسة وانتفاع . وأن « المرصفى » كان يراجعه ويوجهه وينقده ، وما أظن إلا أن « البارودى » قرأ هذه الدواوين الضخمة عليه، وسمعه ينقدها ويعلق عليها . وبيدى رأيه فيها ، « والبارودى » يقدر صلته بأستاذه ، ويفى حق الوفاء له ، يقول « المرصفى » . وكان حرسه الله كتب لأبناء وزه كتباً وهو فى حرب الروس ولم نصل إليهم ، وظن وصولها وتأخيرهم عن المبادرة والإجابة ... وقد وصل إلى أحد كتابين كتبهما لى يوم قدومه إلى مصر بعد مدة من كتابته (٢) ومطلع هذه الأبيات :

طال النوى من بعدكم وانقضت ... بشاشة العيش وساء المقام

مولاى قد طال مرير النوى ... فكل يوم مربى ألف عام

---

(١) الوسيلة الأدبية ـ الجزء الثانى ص ٤٧٤

(٢) الوسيلة الأدبية الجزء الثانى ص ٤٩٧ : وأرسل البارودى الى المرصفى قصيدة أخرى يقول فى مطلعها :

هو البين حتى لاسلام ولاارد ... ولا نظرة تقضى بها حقه الوجد

إلى أن يقول فى ختامها :

فتلك حالى لا رمتك النوى فكيف أنتم بعدنا يا همام ؟

ويقول «المرصفى» وقد شرفت عناية وده أسمى بهذه القصيدة التي يقول فيها

بلوت ضروب الناس طرا فلم يكن سوى « المرصفى » الخير فى الناس كامل
همام أراني الدهر فى طى بردة وفيهى حقق إنتقتنى ما أشمائل
أخ حين لا يبقى أخ ومجامل إذا قل عند النائبات المجامل
بعيد مجال الفكر لو خال خيلة أراك بظهر الغيب ما الدهر فاعل
طرحت بنى الأيام لما عرفته وما الناس عند البحث إلا مخايل
فلو شافنى ما يورد النفس حتفها لأوردتها ، والحب للنفس قاتل
فلا برحت منى إليه تحية ينالها على الضحى والأصائل
ولا زال عن العمر ممتع الذرا مريع الفنا تطوى إليه المراحل

يقول « المرصفى » :

على أن ليس من طبعى أن أقول الشعر إما لفوات أوان تحصيل وسائله ولم تكن ذ ذاك دواع ترشد اليه ، وإما لأن الإستعداد الذى لا بد منه لم يكن فى خليقتى ، أطلقى حبه بأبيات أجمل فيها صفته وهي :

زكا أميرى طبعاً واعتلى شرفاً فدار حيث تدور الشمس والقمر
ونا مانال عق كد الرجال فلا من عليه لشخص حين يفتخر
بفضله كل أهل الأرض معترف كما تصادق فيه الخبر والخبر
لا يجهل الرتبة العلياء يعمرها ولا يقيه بها أعظم الخطر
صحبته وهو سر فى مخايله حتى تخير من إخلائه الكبر
فما أخذت عليه شبه بادرة ولا تخيلت أمراً فيه يعتذر
أدامه الله نقنى من فضائله ومن فواضله ما أينت الشجر

كان الشيخ « حسين المرصفي » مكفوف البصر ، وقد عرف منذ صغره بحدة الذهن ، وتوقد الذكاء ، وإذا صح ماقيل أن والده حفظ القرآن في ستة أشهر: فإن ذكاءه موروث عن أبيه،وكان إلى جانب ذلك مثابراً شديد الملازمة لكتب الأدب ، يرتوي من محاسنها ، ويستظهر من روائعها ، ولم يسترح إلى الأدب الشائع في عصره ، ولم يرقه نهجه ، فكان في طليعة من تفطنوا في هـذه البلاد إلى قدر الأدب القديم(١)

وكان من حبه للأدب العربي القديم وقدوته على تفهم أسراره ، وتذوق بلاغته، يقرأ كثيراً في كتب البلاغة العربية ودواوين الشعراء الفحول،ويبذل جهده في استظهار مايهتز له ، ويجيل قلمه على غرار مابهره من هذه الآداب ، حتى استقام له بيانه الرصين .

وكان إلى جانب هواه بالأدب ، شديد الميل إلى العلوم العربية ، دائم البحث في أسرارها ، والغوص في دقائقها ، واكتناه خفاياها ، حتى صار في العلم بها حجة ثبتاً ، وقد قرأ الخط العربي والفرنسي في أقرب زمن مع انكفاف بصره وهو حروف إصطلح عليها إصطلاحاً جديداً تدرك باللمس باليد (٢) .

وتولى تدريس الأدب والعلوم العربية بمدرسة دار العلوم ، وتخرج على يديه طليعة النابهين من أبنائها الشعراء والأدباء ، وهو شيخ أدباء هذا العصر ، وكان قبلة العلماء والأدباء والشعراء ، وكان من تلامذته « حفني ناصف » وممن أخذ بتوجيهه « عبد الله فكري » ومادام هـو المنبع الرائق الذي استقى منه «البارودي» وهو رائد البعث،فكل من نهج نهج «البارودي» تلميذ للمرصفي.

وكان من أثره في النهضة الأدبية المعاصرة فصوله الممتعة التي كان ينشرها في صحيفة « روضة المدارس » وقد رسم بها للأدباء أمثل الطرق في ممارسة البيان العربي الجزل،وكان قدوة الكاتبين بطريقته العذبة التي تجمع بين الجزالة والسهولة

---

(١) المفصل في تاريخ الأدب العربي حـ ٢ ص ٣٩٨

(٢) الخطط التوفيقية حـ ١٤ ص ٤٠

وأسلوبه طلى رصين واضح لا ينزل بالسجع إلا لماماً ، ولم يركن إلى الصنعة التي فتنت الأدباء ونفت عنهم البهاء والرونق « وهو فى سلاسته وترتيبه المنطقى أقرب ما يكون شبها « بابن خلدون فى مقدمته فهو بحق من أولئك الأفذاذ الأعلام الذين ردوا على اللغة فى العصر الحديث ما كان لها من البهاء القديم فى العصر القديم (١)

ومن حديث المرحوم الشيخ « عبد العزيز البشرى » قوله : ويقوم ذلك الكاتب الأديب المجدد فيلفت جمهرة الأدباء عن ذلك الأدب الضامر ، ويوجه أذهانهم وأذواقهم جميعاً إلى الخالص المنتخل من أدب العرب فى جاهليتهم وفى إسلامهم ، ويبعث لهم شعر « أبى نواس » و « أبى تمام » و « البحترى » و « أحمد بن يوسف » وأضرابهم من متقدمى الكتاب ، فسرعان مايصفو البيان ويحلو ، وسرعان مايجزل القول ويعلو ، وسرعان ماتنفرج آفاق الكلام ، وتنبسط أسلات الأقلام فى كل مقام ، وناهيك بغرس يخرج من ثماره « إبراهيم المويلحى » فى الكتاب ، و « محمود سامى البارودى » فى الشعراء (٢)

ومن أعظم آثار « المرصفى » ومؤلفاته كتاب « الوسيلة الأدبية للعلوم العربية » وهو كتاب جليل القدر لاغنية لأديب عنه ، رقد شاع الانتفاع بما فيه من الآداب والعلوم ، من نحو وصرف وفقه وبيان ومعان وبديع وتاريخ ، ساقها لتعليم الكتابة الإنشائية ، وترويض الملكات البيانية على غرارها ونهجها القوى الصحيح ، وهو يتبع فى هذه الكتابه طريقة الشرح والإفاضة والاستطراد فإذا ألم ببحث علمى وفى جوانبه ، وبسط فى آفاقه ، ولم يدع فيه مايحتاجه الباحث من التعقيب ، وإذا أورد قصيدة أو خطبة شرح معانيها اللغوية شرحاً دقيقاً متمكناً ، ثم بين مراد الأديب مما قاله ، وتعرض له بشىء من أخباره وآثاره ، وقد يستطرد فيقرن المعنى بمشابه له ، أو مقارب منه ، أو مضاد له ، يفيض فى كل ذلك بأسلوب رصين واضح فصيح ، وقد عمد فيما اختاره من آثار عربية إلى روائع الأدب من شعر ونثر وخطب ورسائل ، فهو حسن الذوق فى كل مايهتدى إليه ، غزير المادة بما يتناوله ، قريب الشبه فى مسلكه بالكتب التى هى أصول

(١) المنتخب من أدب العرب حـ ٢ ص ٥٨٣ هامش

(٢) المختار حـ ١ ص ٤١

الأدب من أمثال « الأمالى » و « الكامل » و « العقد الفريد » إلا أنه لم تغلب عليه ناحية خاصة ، ومهما يكن من شيء فكتاب « الوسيلة الأدبية » يعد مدرسة تلقى عنها العلماء والأدباء والشعراء ماكان للمرصفى من علم وأدب ، ومن تجديد وتوجيه ، كان له أعظم الأثر فى الحياة الفكرية والأدبية الجديدة .

على أن للمرصفى أيضاً كتاب « الكلم الثمان » وهو رسالة شرح فيها كلمات جرت على ألسنة الناس فى عهده وكثر ترديدهم لها ، ولهجوا بذكرها ، مما دعاه إلى بسطها وتبيينها .

أما « دليل المسترشد فى الإنشاء » فهو كتاب وضعه لتعليم طرق الإنشاء وكيفية استهلال الرسائل فى شتى موضوعاتها .

وختام القول إن « حسين المرصفى » ثمرة من ثمار الأزهر الشهية ، والنوابغ فى العلم والأدب والشعر من ثماره .

د . محمد كامل الفقى